الضباب

قصة بقلم سليمان فياض

على غير موعد ، وبعد أسبوع واحد ، عاد « وديع » الى العيادة . لم يكن في هذه المرة وحيدا ، بل كان أشد شعورا بالوحدة مما كان . عاد يقوده صديق ، متأبطا ذراعه ، وكأنه هو الذي يقود صديقه . وقف امام الباب في الثامنة تماما ، اوشك ان يتخطى الحد الدقيق الفاصل ، بين مدخل الباب وردهة السلم ، والمرض يدفع الباب ليغلقه دون أي قادم جديد . ابتسم المرّض ، وافسح لهما الطريق ، ثم اغلق الباب خلفهما . وجد « وديع » صالة العيادة ممتلئة بالمرضى . على أعين البعض نظارات ، تبدو لعينيه مصابة بالعشى ، في الضوء الشاحب ، في الجو الرطب ، وثمة مكان واحد خال ، كأنه ينتظره . أجلسه فيه الصديق . وجاءه المرض بمقعد احتياطي من غرفة الكرار المجاورة لدورة المياه ، فجلس بجواره . البعض الآخر مغمض العينين ، يلقي برأسه على حافة المقعد ، في أيديهم قطع من القطن ، يجففون بها ما ينحدر من عيونهم . أومأ المرض لاحدهم فنهض وتبعه ، بينما خرج آخر ، وجلس في مكانه ينتظر . جاءه المرض بقطارة ، وسكب في كل من عينيه بضع قطرات ، وأعطاه قطعة من القطن . أخذ يتأمل الاشياء من حوله . لوحات زيتية خضراء ورمادية ، غامضة الاشكال ، بعضها بعرض الجدار ، والآخر بطوله . قائمة بأسعار العيادة ، ستارة بيضاء شفافة رقيقة ، هفهافة ، تغطي نافذة مستطيلة ، في فجوة بالجدار ، يعبث بها الهواء في مسقط النور للعمارة . عين وحيدة ، مصنوعة من سلك أسود ، معلقة على الجدار ، تحدق في الجالسين . طال الانتظار ، فعاد « وديع » الى داخله ، عيناه مفتوحتان ، تنظران ، لكنهما الآن لا تريان شيئا .

كان ما يزال جالسا في صالة الانتظار ، على مقعد صغير آخر ، تحت الستارة البيضاء مستروحا نسمة الغروب ، ينتظر دوره . اشار له المرض ، بطرف اصبعه ، فنهض ، وتبعه ، ولم يلق بالا للخارج لتوه من غرفة الفحص . لمح لافتة الغرفة السوداء ، مكتوبا عليها بالاسبداج الابيض : « الفحص » . ولج عتبة الغرفة . نهض له الطبيب ، مبتسما. وأشار اليه ليجلس بجانبه ، بمقابل مرآة ، تعكس لوحة الدوائر السوداء . كانت الغرفة مضاءة بمصباح وحيد ، خلف لوحة الدوائر ، في داخل محورها . مد الطبيب يده ، وتناول مفكرة ابجدية . سأله :

ـ جديد ؟
ـ نعم !
ـ اسمك ؟
ـ وديع عبد الباقي !

أخذ الطبيب يدون ما يقوله . وراح وديع يتفحصه على مهل.

ـ عمرك ؟
ـ اربعون سنة .. اثنتان وأربعون .
ـ ماذا تعمل ؟
ـ موظف .. كاتب حسابات .
ـ متزوج ؟
ـ لا .. أعزب .

جاوز الطبيب الستين من عمره . وجهه أسمر ، يضع على عينيه نظارة ، مثل مرضاه . قالوا له : « هو احسن طبيب عيون في المدينة كلها » . وقالوا : « لديه كرامة » . وقالوا : « كان أستاذا مساعدا في الكلية . خلا مكان الاستاذ فتخطوه ، وعينوا آخر » . وقالوا : « غضب، وقدم استقالته ، دفاعا عن كرامته » . وقالوا : « انه انسان قبل ان يكون طبيبا » . وقالوا : « لا تهمه المادة كثيرا » . حدثه رئيسه في العمل عنه ، قال : « هذه النظارة الممتازة هو الذي اشار بها عليّ » . وحدثه زميل مسن في العمل ، قال : « ذهبت اليه حين عينت حديثا بالوزارة ، خفت من الكشف الطبي فلجأت اليه عفوا . رايت لافتة عيادته ، على الشرفة ، بالدور الثالث ، فصعدت اليه . طلبت منه نظارة لاجتاز بها الكشف الطبي في القومسيون . ففحص عينيّ ، وقال لي : قبل النظارة ، تحتاج الى عملية ازالة لحمية من العينين . قلت له : فيما بعد ؟ ضحك . قال : لا بد . قلت : معذرة يا دكتور . فيما بعد ، ليست لديّ نقود لهذه العملية ، لكنه أصر ، طلب ان اعود اليه ظهر غد . فعدت اليه ، في وهمي انه سوف يستكمل فحص عينيّ لعمل نظارة . حين دخلت العيادة ، لم يكن هناك أحد . أخبرني المرض، ان هذا الوقت ليس وقت عمله اليومي . دهشت . استقبلني ، وأشار اليّ لاتبعه . لم يكن في جيبي سوى ثلاثة جنيهات ، أتحرك بها في المدينة . تبعته ، ادخلني غرفة العمليات . فتحت فمي لاتكلم . فقال لي مشيرا الى طاولة العمليات : اصعد . صعدت . تمددت . خدر عينيّ ، ثم راح ينتش أجزاء من لحم جفنيّ ، كانت يده خفيفة كالريشة . كأنه يجري مجرد مس . حين انتهى . امرني ، فوقفت . مددت يدي بالجنيهات الثلاثة اليه ، ثكنه ضحك . قال : أنت بحاجة اليها . ضعها في جيبك . لم يأخذ مني سوى الجنيهين اللذين اخذهما اولا لعمل النظارة ، كانا هما ايضا اجرا لهذه العملية » . وقالوا : « لديه عزبة. بوسعه ان يعيش منها بقية حياته سعيدا . لكنه يؤثر ان يظل يعمل » .

سأله الطبيب :

ـ هم . مم تشكو ؟

ـ سحابة . سحابات صغيرة تمشي امام عينيّ .
ـ مسألة بسيطة .
ـ لا أعتقد .
ـ لم ؟
ـ بدأت المسألة بعد ان احسست بدواره .
ـ مرة واحدة ؟
ـ لا . جاءني الدوار مرات عديدة ، وتعددت السحابات . فجئت اليك .
ـ منذ متى ؟
ـ اليوم ، في الصباح فقط .
ـ وبعدها ؟
ـ تكرر الدوار ، وزادت السحابات .
ـ تشعر بصداع ؟
ـ لا .
ـ يرهقك ضوء النهار ؟
ـ لا .
ـ لديك هموم ؟

هموم ؟ سؤال محير . وحيد أنا . وهمي ؟ لا هم لديّ . أنام ، وآكل ، وأشرب ، وأعمل ، وأسهر قليلا في المقهى . همومي هي هموم الآخرين ، وهذه ليست مما يذكر . لو مات مليون انسان في الصين ، لما تألمت تذلك قدر ان يؤلمني وجع بأحد أضراسي . اذن فليس هناك هم. ما الذي يعنيه اذن بسؤاله ؟ قلت للطبيب :

ـ لا . ليس لديّ هموم !
ـ تمارس الجنس ؟
ـ أحيانا .
ـ كيف ؟
ـ بعض مرات مع نساء من الطريق . ومرات أخرى مع نفسي .
ـ كيف ؟
ـ أنت تعرف .
ـ كثيرا ؟
ـ لا . أحيانا يريحني من الاثنين : الاحتلام . حياتي معتدلة ، ورتيبة كالدفاتر التي امسك بها .
ـ هم .. وكيف تقضي يومك ؟
ـ ايضا . مثل الدفاتر .

ضحك . سأل :

ـ هل تسهر ؟
ـ حتى العاشرة فقط . أتفرج على رفاقي ، وهم يلعبون الطاولة .
ـ تعاني من متاعب جسدية ؟
ـ لا .
ـ وجع ، يكبس على عينيك .. مثلا ؟
ـ لا .
ـ ولا مرة ؟
ـ ولا مرة .
ـ يتعبك الضوء الشديد ؟
ـ لا .. من قبل .. لا ..
ـ واليوم ؟
ـ أحسست بضوء الصباح ، كأنه ضوء الظهيرة ، في عز الصيف.
ـ طيب . سنرى ..

أطفأ الطبيب ضوء اللوحة . أضاء ضوءا آخر . راح يفحص عينيه بعدسة ، تعكس الضوء في حدقة العين . نهض ، وأشار اليه ، فجلس بمقابله ، وأخذ يفحص عينيه بالمنظار ، بعد أن أطفأ كل ضوء خارجه .

حدث الامر كله بلا مقدمات معروفة لديه . استيقظ في الصباح مبكرا ، خالي الذهن من أي فكرة ، من أي انفعال ، من أي حلم ، بل من اي احساس بكثافة الاشياء من حوله . كلها مجردة ، صماء خاوية. لا نجد لها صدى في داخله ، ولا تحدث أي اهتزاز . راح يمارس طقوس اليقظة المعتادة ، بآلية هامدة . سوّى سريره ، ووارب النافذة الداخلية ، ليغير من هواء الغرفة ، وأدار مفتاح الراديو ، فتكت حركة بداخله ، وامع ضوء اخضر ، في العين السحرية ، ثم انقسم منفرجا . وصدحت موسيقى غربية رتيبة ، خفيفة ، راقصة ، لم تنبض لها ذرة ، في خلايا رأسه ، بتأثر ما ، لم يردد ايقاعها ، او يدندن من أنغه معها. دهش لامر نفسه . في العادة يبتهج ، او يقلبه حزن قاهر مجهول المنبع، في العادة ، يحس بانتعاش ، او بصداع يتناول له مسكنا ، لكنه يفقد، الآن ، الاحساس باللذة او بالالم . لم يشعر حتى بالقلق لحاله .

تحرك كالعادة ، تناول فوطة من على شباك سريره ، طرحها على كتفه ، وذهب الى الحمام . تذكر . ذهب الى المطبخ ، وأوقد شعلة البوتاغاز الصغير ، العالية . شطف البراد ، سكب فيه كوب ماء واحد، ووضعه على البوتاغاز ، وعاد الى الحمام . تذكر ، أغلق باب الحمام خلفه ، وجلس ، أفرغ امعاءه بهدوء . دهش لان ذلك يتم ببساطة بالغة ، دون لذة ، ودون ألم . لا امساك ، ولا اسهال ، ولا معاناة . بدا له ان امعاءه ، على غير العادة ، على ما يرام . أفكاره الجنونية ، القلقة ، او اليائسة ، او الخلاقة . المشاعر التي لا يمكن التعبير عنها. الذكريات السارة ، او المحزنة .. كلها كانت تأتيه في تلك اللحظة ، في فيض من مكابدة الجسد ، من تقلص العضلات ، والاشارات العصبية الغادية والرائحة ، للتخلص ، والتطهر ، والطرح . الآن . لا شيء . ذلك أمر لا يسر .

وقف امام المرآة ، اخرج الموسى من غلافه الرقيق . وضعه في ماكينة الحلاقة الاميركية ، المزودة بأرقام على احد جانبيها ، وجعل علامة « خطي » الموسى ، ناحية الرقم (١) عند ناحية معينة ، جهة الثقب المستطيل بالماكينة ، ادار قرصها الدائري الى الرقم الثالث وأوقفه . ودار بخاطره : بعد هذه المرة ، سيعيد الموسى الى غلافه ، ويخزنه في علبة من الصفيح ، ليبري به فيما بعد قلما ، او يفتح له كتابا او مجلة. أدار دائرة مشرشرة في أسفل يد الماكينة . فانطبق مصراعاها على الموسى. وضعها جانبا على طرف الحوض . فتح صنبور الماء على الفرشاة ، حتى أغرق خيوطها ، ودلك بالماء ذقنه ، ثم أغرقها ثانية بالماء ، وضغط على انبوبة معجون الحلاقة ، فاندفع منها سائل متماسك ، أخضر ، قدر سنتيمترين . رفع اصبعه ، وأغلق الانبوبة ، وأعادها الى مكانها من الرف الزجاجي ، بانحائط المجاور . راح يدلك ذقنه بالفرشاة ، ويديرها على جانبي وجهه ، وحول فمه ، وأسفل ذقنه ، حتى اكتست لحيته بالرغوة البيضاء . تركها لتنفذ الى مسام الشعر الصلب القصير. وذهب الى البراد الذي يغلي . أسقط بداخله ملعقة شاي ، وأعاد غطاءه . وأسقط ملعقتي سكر مبلور ، في الكوب الزجاجي ، وأطفأ شعلة البوتاغاز ، وعاد الى حوض الحمام ، ودلك ذقنه بالفرشاة مرة ثانية ، وأخذ يحلق ذقنه ، مرة ، ومرتين ، وثلاث مرات ، محركا قرص الماكينة الى الرقم (١) ، دافعا الموسى الى كل الاتجاهات يمنة ويسرة ، وأعلى ، وأسفل ، معارضا اتجاه منابت الشعر ، حتى لا تند من حده المرهف شعرة ، مستمعا الى صوت حز الحد في جذور الشعر . غسل الفرشاة ، ونثرها مرارا ، وأعادها الى مكانها من الرف . أدار محبس الماكينة ، فانفرج مصراعاها ، وغسل الموسى ، وجففه ، وأعاده الى مكانه المعين من ورقته المزدوجة ، ثم من علبة الصفيح ، وغسل وجهه بالماء والصابون ، وجفف وجهه ، ووضع الفوطة على مزلاج الباب . ثم ذهب الى المطبخ .

أتى بطبق الجبن ، ورغيف الخبز ، وملا الكوب بالشاي ، وجلس ليفطر . أكل جيدا ، وبشهية ، وشرب الشاي حتى آخر قطرة ، وترك كل شيء في مكانه ، وعاد الى الحمام . غسل يديه وفمه مرارا ، ثم نظف أسنانه بالفرشاة والمعجون . وعاد الى غرفة نومه .

أخذ يرتدي ملابسه . وهو يفعل ذلك ، غمره شعور جارف بالوقت. نظر في ساعته ، وفكر انه في الثامنة وخمس دقائق ، سيكون على موقف الاوتوبيس . في الثامنة وعشر دقائق تقريبا ، ستأتي السيارة ، ويركبها ، ويذهب الى عمله . سقطت الكرافتة من يده ، وهو يحاول عقدها ، انزلقت بنعومة من حول عنقه ، على قميصه النايلون ، فانحنى ليأتي بها . آحس بدوار أثناء حركته ، بلغ الدوار أقصاه وهو يرفع رأسه . تحول الدوار في لحظة خاطفة ، لا تعيها العين من عقارب الساعة ، الى دوخة تكاد ان تكون اغماء . نفض رأسه . عقد الكرافتة . انطرح على حافة السرير ، ودلى رأسه وعنقه الى أسفل اتحافة ، ليتدافع الدم من جديد الى رأسه . ظل دقيقة ، واثنتين ، وحبس أنفاسه . ثم نهض ، وارتدى جاكتته ، ولبس حذاءه ، وتأكد من أشيائه الخاصة : قلم الحبر « الباركر » ، بطاقته الشخصية ، روشتة طبيب قديمة ، مفكرته الخاصة بأرقام التليفونات والمواعيد ، حافظة نقوده ، بضعة قروش معدنية لتذاكر الاوتوبيس في الذهاب والعودة . واتجه الى باب شقته .

أدار مفتاح الباب مرتين . وجذب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخرج المفتاح من ثقبه بالداخل . أحس بالضباب يطمس امام عينيه الرؤية الواضحة للاشياء . عاد يغلق الباب . دفعه فانزلق مزلاجه الى الثقب. وعاد الى انرف الزجاجي بالحمام ، وملأ القطارة من زجاجة القطرة « البروتكتين » ، وضغط . فانزلقت قطرتان ، فثلاث ، في كل من عينيه ، وأغمضهما عليها . وظل مميلا عنقه الى الخلف ، وهو يغلق الزجاجة ، ويعيدها الى مكانها المعهود ، وما يزال مغمض العينين . وظل على حاله ، دقيقة ، واثنتين ، وثلاثا . وتذكر موعد السيارة . بعدها ستكون السيارات الاخرى مزدحمة . أسرع يجفف عينيه بمنديله ، وغادر البيت مسرعا ، وأغلق الباب خلفه بالمفتاح مرتين ، ثم وضعه في جيبه .

بهره الضوء النهاري المبكر في الشارع ، كما لو كان في وقت الظهيرة ، في حدة من قيظ الصيف ، تحت سماء طباشيرية باهرة الضوء . آحس بسحابة خفيفة ، نقط من سحابات سوداء ، دائرية ، هلامية ، ذات رؤوس وأذيال ، تروح وتجيء امام عينيه ، اينما تحرك انسانهما . لم ينزعج لما يحدث . فكر فقط ، بآلية صرفة ، انه سوف يذهب في آخر اليوم ، الى طبيب عيون . عيناه نافذتان على الدنيا . بدونهما سيقوده آخر ، او يتحسس الطريق بعصا ، بدونهما يفقد عمله كموظف . وعليه واجب نحو هاتين العينين ، بهما يأكل ، ويمشي ، ويحبر الاوراق ، وينال أجره . بهما يلقى الاصدقاء ، ويظل موجودا .

فكر ، وهو بموقف الاوتوبيس ينتظر ، فيما حدث ليلة امس . كان يلعب الطاولة مع رفاق السهرة . بالاحرى كان يتفرج عليهم ، وهم يلعبونها ، ويتحدثون في السياسة . بدت كل الدروب مغلقة في حديثهم . كلما فتح احدهم بابا اغلقه الآخر . فكر ساعتها ان المنافذ عديدة ، وكل المنافذ غارقة في الضباب . شعر عندئذ بقلق عاصف ، متكرر . للمرة الالف ، للمرة المليون ، يشعر بهذا القلق . يحسه ، يعانيه ، يكابده . كالعادة ، في كل مرة لعن أحدهم الحياة ، أعلن ثان انه يائس من الجنس البشري . قرر آخر اننا كالانعام نولد ونموت ، وبينهما نأكل ونشرب ، وننام ونصحو ، ونتواجد ، كمن في الحلم . وقرر رابع انه ليس لاحد من الامر من شيء . وليس علينا سوى ان نتفرج ، وننتظر ما يأتي به الغد ، لنتفرج عليه بدوره ، وننتظر ما يأتي به الغد . هكذا كانت الدنيا ، وكان الناس ، وهكذا كان كل شيء ، ويكون كل شيء ، وهكذا سيكون كل شيء . وشعر في داخله بسواد مقبض ، يعتصر قلبه ، ويغمر روحه ، حتى دلف الى النوم ، نوم كابوسي ، عهده مرارا من قبل .

عاد الطبيب يوقد الضوء . عاد به الى مجلسهما الاول . وراح يدون . ثم قال له :

ـ لا شيء بعينيك . رفه عن نفسك : سينما . مسرح . نزهة . جنس . عش بمرح .

ـ بمرح ؟ كيف ؟

ـ اضحك . العب . قليل من اللهو يصلح النفس والجسد ، كملح الطعام .

ـ طيب . سأحاول . لكن ، هذه السحابات ، تقلقني .

ـ من المفروض ان احيلك الى طبيب باطني . لكنني اعرف ما سوف يصفه لك . خذ هذه الروشتة ، مجموعة فيتامينات ، ودواء للكبد . ثلاث حبات من كل نوع في اليوم ، وعد اليّ بعد اسبوع .

أدار له الطبيب جانبه ، وقلب الصحيفة الخاصة به ، فنهض ، وغادر غرفة انفحص ، ونفح الممرض عشرة قروش ، وذهب الى الصيدلية ، واشترى الدواء . وآكد لنفسه أن كل شيء على ما يرام . وهو في البيت ، فكر ان يذهب الى المقهى ، ومجلس الرفاق . وفكر ، انهم ايضا سيتحدثون في السياسة ، حديث كل يوم ، نفس الحديث المغلق ، حيث لا مخرج ، ولا مهرب ، وانه سيشعر معهم بانقباض اسود ، وهو يغادرهم . وتذكر نصيحة الطبيب ، فذهب الى أقرب دار للسينما ، وتأكد قبل ان يشتري تذكرة الدخول ، ان الفيلم مبهج، وانه للكبار فقط ، وحدث نفسه بجارة حسناء ، يجدها وحيدة الى جواره ، يأخذها معه عند العودة الى البيت ، فعليه ان يلهو ، ويمرح، ويستمتع . هكذا قال الطبيب .

أومأ الممرض الى مريض آخر ، فنهض ، وتبعه ، وأقبل بعدهما مريض آخر . بدا سعيدا . وهو يضبط وضع النظارة الجديدة فوق عينيه . قال له صديقه :

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا شيء .

ـ مستحيل . حين يصمت الانسان ، ويظل مفتوح العينين ، فانه يفكر ، او يتذكر .

ـ ما أشعر به الآن ، اللحظة ، هو أمنية ، أمنية صغيرة جدا . ان انام في قاع محيط ، بعيدا جدا ، على عمق عشرة كيلومترات .

ـ افكار عابرة . من حالتك . لا تلق لها بالا .

ـ ليتني استطيع .

ـ بم تحس الآن ؟ أحسن ؟

ـ لا . كما جئت .. أفكر انه لو فقدت النظر بالمرة ، فسوف يكون ذلك افضل .

ـ تذكر خيرا . لا تجعل من الحبة قبة .

ـ أنا . القبة هي التي نجعل من نفسها حبة .

ابتسم الصديق ، وصمت ، فلاذ من جديد الى داخله . عاد الى الطبيب في الموعد الذي حدده . ابتسم الطبيب له . وقف هذه المرة مرحبا ، وصافحه . بدا كما لو كان يحاول ايضا ان يتذكر اسمه. دعاه الى الجلوس ، وجلس معه ،متقابلين . أسرته التحية ، فرنا الى الطبيب متأملا وجهه . كبر في السن . اكثر من اسبوع مضى ، لعل عينيه هما اللتان شاختا . وجهه الاسمر يلوح له بشوشا وهادئا يبعث فيه شعورا بالامن والراحة ، كوجه أم من القرن التاسع عشر ، يتحجب خلف شال اسود مائل على الجبين . لمعة في عينيه ، خلف

بريق نظارته ، قلقة بعض الشيء ، لديه ارض تدر عليه دخلا سنويا طيبا . لكنه يؤثر ان يظل يعمل ، ربما لذات العمل . لو كان بمكانه ، لجلس على حافة ترعة ، ودلى قدميه في الماء تحت شمس دافئة ، عازفا عن كل شيء ، عن كل مسرة . لكن اصابع اليد ليست متساوية الاطوال. ساله الطبيب :

ـ لا تؤاخذني . ذكرني باسمك .

ـ وديع .. وديع عبد الباقي .

فتح الطبيب مفكرته ، قلب صفحاتها . توقف عند بداية احداها . قرأ سطورها الاولى بسرعة . بدا كأنه تذكر عنه كل شيء . تحول هو عنده الى مجرد حالة ، ربما مجرد نموذج لحالة . عاد الطبيب يساله

ـ هوم . كيف الحال الآن ؟

ـ لم أشعر بتحسن .

ـ مطلقا ؟

ـ بل زادت الحالة معي .

ـ كيف ؟

ـ كبرت السحابات . أصبحت تشكل غشاوة ، تتزايد معي في الليل اكثر من النهار ، تتزايد معي كلما مضت بي ساعات النهار . حتى اوشك ان اخطىء تقدير البعد في المسافة .

ـ هوم .. ارني عينيك .. انظر اليّ .

أطفأ الطبيب المصباح ، وأضاء الآخر . راح يفحص عينيه بعدسته، عاكسا ضوء الجدار في الحدقة تماما . نبر :

ـ غريبة .

اضاف :

ـ فلنعاود فحص قاع العين .

نهض الطبيب الى المنظار ، ونبعه . جلس امامه ، ووضع عينيه واحدة بعد الاخرى امام المنظار . الصقها بدائرته ، والطبيب ينظر من الجهة الاخرى ، يراه من حيث لا يراه هو . نهض الطبيب ودعاه الى مجلسهما الاول . وضع على عينيه نظارة بلا زجاج . راح يغير له العدسات التي قدر فصيلتها المناسبة ، لكل من عينيه . اخذ يدون رموزا في صحيفته بالمفكرة ، بدا كأنه يحل معادلة جبرية . وفتح انبوبة ، ودفق منها ، في كلتا عينيه ، قليلا من معجونها ، وكتب له روشتة ، وقال له :

ـ كتبت لك مرهم اتروبين ، واحد في المائة ، ضع منه في عينيك ثلاث مرات غدا ، وبعد غد ، ثم تعال اليّ .

ـ وعملي ؟

ـ عيناك أهم الآن . خذ اجازة غدا ، وبعد غد . يستحسن ان تكون اسبوعا .

ـ سافعل .

ـ هذه ورقة بالاجازة لتسهل لك المهمة .

ـ اشكرك كثيرا .

ونهض . عاد الصديق يساله :

ـ هيه . كيف حالك ؟

ـ بشر حال . يكفي ان ارى نصفك الآن متداخلا في نصفي .

ـ تضحكني .

ـ هذه هي الحقيقة . هكذا تراك عيناي .

ـ سيكون كل شيء على ما يرام .

جلس بمقابله بعد يومين ، وراح الطبيب يجرب عدساته من جديد، مختبرا بها قوة ابصار عينيه . يسلها من علبة مليئة بالحواجز ، تبدو العدسات كشرائح زجاجية معدة لاختبارات الميكروسكوب . مرآة على يساره ، تعكس دوائر مقابلة ، مفتوحة من احدى جهاتها الاربع ، تدور بها لوحة الدوائر . بالكاد ، سجل في عينه اليمنى نصف ابصار ، وفي عينه اليسرى ثلث ابصار . سجل زوايا العدستين في ورقة ، واعطاها له ، قائلا :

ـ ستحتاج الى نظارتين . احداهما سوداء للنهار ، والاخرى بيضاء لليل ، لا تدع النظاراتي يركب لك عدستين الا من ماركة «زايس» ثم هاتهما لاتاكد من سلامتهما ، تعال غدا ، او بعد غد .

ـ متى ؟

ـ في نفس الموعد . مثل الآن .

وصافحه وديع شاكرا فضله . قال لصديقه :

ـ اطلب المرض . اريد ان ادخل للطبيب .

ـ امامنا دور . بضعة مرضى .

ـ الآن . لا أطيق الانتظار .

ـ كما تشاء . سأذهب اليه بالداخل .

فحص الطبيب نظارتيه تحت الميكروسكوب ، ثم ردهما اليه مبتسما . لم كان يبتسم اذن ؟ قال :

ـ عال . مبروك . نادرا ما يحسن احدهم صنع نظارة كنظارتك .

ـ حقا ؟!.. لكن ..

ـ خيرا .

ـ وضعتهما على عيني واحدة بعد اخرى . لم اشعر بالراحة . احسست بدوار خفيف ، وبانني غير مستريح .

ـ لا تتعجل النتائج . بعد ايام قليلة ، ستكون عيناك قد تعودتا على الرؤية بهما .

عاد الصديق . قال له :

ـ أبلغته رغبتك . سيبلغها للطبيب .

ـ قلت له اسمي .

ـ نعم .

ـ لعلي لا اضايقه . أعتقد انه سيدعوني في الحال اليه .

ـ أكد لي المرض ذلك ، بعد ان يخرج المريض الذي لديه .

ـ مدهش !!

ـ ماذا يدهشك ؟

ـ الا تلاحظ ؟ ليست حولنا سيدة . فتاة واحدة . رجال . كلهم رجال .

ـ مصادفة ؟

ـ تعتقد ؟ في المرات السابقة التي جئت فيها الى هذه العيادة ، لم تكن بين المرضى سيدة . اذكر ذلك الآن جيدا .

ـ ربما لان طبيبك عجوز .

ـ ربما .

ـ وربما كان طبيبك خاصا بالرجال .

وضحك .

ـ لكن الغشاوة ، يا دكتور ، ما تزال امام عينيّ .

ـ ستختفي يا بني . فقط ، ضع النظارة على عينيك ، طالما انك في يقظتك . السوداء في النهار ، والبيضاء في الليل .

ـ أمرك . سافعل .

وصافح الطبيب شاكرا ، ومودعا ، لكن الطبيب قال له ، وما تزال يده في يده . كن على صلة بي ، مثلا ، بعد اسبوعين .

ووعده وديع بأن يفعل ، وهو عند باب الغرفة ، قال له الطبيب

ـ لا تنس . عد اليّ ، لتطمئن . اقصد لاطمئن عليك .

أحس بالقلق ، لان الطبيب يلح في ذلك . كان على حق . مم كان يخاف عليه يومها ؟ ذلك يدل على أي حال ، أن حالته معروفة لديه ، وان النظارة لم تكن سوى محاولة . عاد المرض وقال له :

ـ تفضل .

قال له :

ـ خذ بيدي .

ونهض قائلا لصديقه :

ـ ابق انت . تذرع بالصبر قليلا ، وانتظرني .

وقف وديع امام الطبيب . احس بانزعاج وجهه للحظة خاطفة . ثم سيطر على نفسه مبتسما . استجاب للمس يده ، وجلس .

ـ خيرا .

ـ حدث شيء لا يسر .

تقلصت عضلات وجه الطبيب ، وزوى ما بين حاجبيه . لشدة قربه وعى وديع ما يراه على وجه الطبيب . نظر اليه مستفسرا . قال :

ـ لم اعد ارى جيدا .

ـ كيف يا ولدي ؟ حدثني بالتفصيل .

انس اليه كثيرا . قال :

ـ في البداية ، بعد يوم واحد ..

ـ هل تخلصت من النظارة ؟

ـ لا . ظللت انفذ اوامرك .

ـ عال . قل . ماذا حدث ؟

ـ .. صحوت في الصباح لاذهب الى عملي . فاكتشفت انني لم اعد ارى بعيدا . كنت ارى الناس على البعد المناسب ، المعتاد ، بتفاصيلهم ، حجما ، وحركة .

ـ هوم .. وبعد .

ـ وجدت نفسي لا اراهم الا احجاما ، كتلا . مجرد كتل عامة تتحرك من حولي . وعلى مسافة قريبة ، ظلت تتناقص ، وتتناقص . لم اعد اراهم جيدا ، الا كما اراك الآن .

ـ قل لي .. والنظارة على عينيك ، ام بدونها ؟

ـ والنظارة على عيني .

ـ وبدونها ؟

ـ نفس المسالة لكن بصورة اشد .

ـ بنفس الدرجة ؟

ـ بنفس الدرجة .

ـ الناس كتل ؟

ـ نعم .

ـ كيف ؟ ظاهرة غريبة ؟

ـ غريبة ؟ اليست موجودة لديك في الكتب ؟

ـ سوف اخبرك . قل .

ـ هذا هو ما حدث .

ـ فقط .

ـ لا . حدث لي امس فقط ، ما هو اخطر .

ـ قل .

ـ امس . وجدتني افقد الشعور ب .. ب ..

ـ بالاتجاه ؟

ـ لا .. ليس بالاتجاه .

ـ بماذا اذن ؟

ـ بالمسافة في الاتجاه . يمكنك ان تقول ذلك . بل الامر كما اقول بالتحديد : فقدان الشعور بالمسافة في الاتجاه .

ـ اسمع . انك تتوهم . انك تطعن في كل ما تعلمته .

ـ دكتور . معذرة . لست أتوهم . انني متعلم بدرجة كافية . واملك ذكاء كافيا للادراك . وانا اقدر كفاءتك . الكل يقدرها في هذه المدينة .

ـ اشكرك . قل . ماذا حدث امس ؟ اقصد . وضح لي ما حدث بالضبط . أحك مثالا .

ـ امس ، أردت ان اشرب . كنت ارى كوب الماء امامي على المنضدة . مددت يدي لامسكه .

ـ هوم . وماذا حدث ؟

ـ قبضت يدي على فراغ !

ـ مدهش !

ـ أخذت احرك يدي ، حتى امسكت بالكوب ..

ـ عندما مددت يدك في البداية ، كنت ترى الكوب ؟

ـ نعم .

ـ على اليمين ، ام على اليسار ؟

ـ ليس هذا او ذاك .

ـ كيف ؟

ـ كان الكوب اقرب الى حيث وضعت يدي .

ـ اذن اصطدمت يدك بالكوب ؟

ـ نعم .

ـ كررت التجربة ؟

ـ نعم .

ـ ولو اعدناها الآن ، هل سيحدث نفس الشيء ؟

ـ نفس الشيء .

ـ هل هناك شيء آخر ؟

ـ نعم . كنت انظر بعيني الاثنتين . في هذه المرة ، قمت باختبار آخر لعيني . انني متعلم . ولديّ من الذكاء قدر يكفيني ، على الاقل، لاعرف . ضحكت حين اصطدمت يدي بالكوب . لو كنت جاهلا لصرخت من الرعب . لظننت ان الكوب قد ركبه عفريت ، او انني قد اصبت بلوثة ، بمس . بل ان ذلك خطر لي بالفعل . لكنني اعرف انه من تاثير الرواسب القديمة الموروثة ، والمكتسبة . انا اعرف ذلك . لذلك ضحكت ، ولم افزع .

ـ لا تبتعد . أرجوك . فلندخل في الموضوع ، فلنعد اليه .

ـ اغمضت عيني اليسرى ، فاكتشفت وانا احاول القبض على الكوب انه كان على يساري أو أقرب اليّ ، وانني قبضت على الفراغ. اكتشفت ذلك بتكرار المحاولة لا غير ، والاستنتاج . نفس الشيء تقريبا، حدث عندما اغمضت عيني اليمنى ، سوى انني وجدت الكوب على يميني ، من حيث حاولت يدي ان تقبض عليه .

ـ اذن . امامنا ثلاثة اوضاع : بعينيك الاثنتين ، ترى الكوب في الخط الذي تنظر اليه . لكنه يكون اقرب اليك ، من حيث وضعت يدك.

ـ نعم .

ـ وبعينك اليسرى ترى الكوب اقرب ايضا ، لكنه على اليمين من يدك .

ـ نعم .

ـ وبعينك اليمنى ترى الكوب أقرب ايضا ، لكنه على اليسار من يدك .

ـ نعم .

ـ اخبرني .

ـ انا تحت امرك .

ـ حين تنظر بعينيك الاثنتين ، هل ترى الكوب واحدا ، ام اثنين؟

ـ واحدا .

ـ اذن . الشبكية في المركز تماما من كلتا عينيك .

ـ اعتقد ذلك . معذرة . لديّ بعض المعرفة بتشريح العين . في الايام الاخيرة فقط .

ـ اسمع يا ولدي . فحصك من جديد ، لن يضيف شيئا من المعرفة لي ، او لك . وأعتقد انه ينبغي ان تذهب الى طبيب أعصاب . سأكتب لك توصية لطبيب أعصاب صديق أثق به .

ـ أشكرك ، سأفعل . لكن . لا تؤاخذني . لماذا ؟ اريد ان افهم.

ـ أشك ان مركز التوازن بالمخ غير سليم . ربما كنت مجهدا . اسمع . أمسك بهذا القلم ، حاول ان تدخله في الفطاء . من مرة واحدة . ومن مسافات مختلفة بين يديك . ركز عينيك وذهنك .

أخذ وديع القلم منه . أمسك غطاءه بيد ، وبسائر القلم في اليد الاخرى . وحاول . في كل مرة ، اندفع الغطاء بجوار القلم . قال الطبيب :

ـ أعتقد انه مركز التوازن .

ـ لم ؟

ـ طبيب الاعصاب سيعرف .

ـ انك تفزعني من حالتي .

ـ معذرة . حالتك نادرة . ولذلك اصارحك . وربما تكون مراكز الادراك في المخ ..

ـ وربما يكون هناك خلل بمركز البصر فقط .

ـ ربما يا بني .

ـ والنتيجة ؟ أليس لذلك علاج ؟

ـ لا أعرف . اسمع . قم ايضا بعمل تحاليل شاملة لجسدك .

ـ هذا يعني يا دكتور ان الامل ضعيف .

ـ لم يا ولدي ؟ افعل ما قلت لك ، وسوف اعقد لك كونسلتو من كافة الاطباء المختصين بالجسم البشري .

ـ يا الهي .

ـ لا تخف ، لن اكلفك شيئا .

ـ عندنا في العمل ، حين نحيل امرا الى خبير بعد خبير ، ولجنة بعد لجنة ، تكون النتيجة معروفة : الفشل .

ـ يا ولدي . اسمعني . حالتك فريدة .

ـ وغارقة في الضباب .

ـ بالتأكيد ، غارقة في الضباب . يخالجني شعور بأنني سوف أرى قريبا نماذج اخرى منها . هناك أمور كثيرة أعتقد انها هناك ، موجودة . بل هنا . معك . ومعي .

ـ دكتور . انك تفزعني .

ـ لا . لا أقصد ذلك . ولا ينبغي ان تفزع . علينا ان نواجه الموقف بعقل بارد .

ـ وسط هذا الضباب يا دكتور ؟

ـ وسط هذا الضباب يا بني . اسمع . قلت لي كم عمرك ؟

ـ اثنتان وأربعون سنة .

ـ فقط . الم تلاحظ ان شعرك قد غزاه الشيب سريعا ؟

ـ نعم . واذكر ان ذلك لم يحدث لابي او جدي ، حتى لجدي لامي ، بهذه السرعة .

ـ هل قدرتك الجنسية على ما يرام ؟

ـ نعم . لا . ليست كما كانت . لا تؤاخذني . ضعفت الرغبة . وأقذف سريعا ، وأحيانا يهمد فيّ كل شيء قرب الذروة . الرغبة الوحيدة التي تتزايد لديّ هي الرغبة في النوم .

ـ والموت ؟

ـ دكتور . ماذا تقول ؟ أوه . وانا انتظر الدخول لديك ، تمنيت ان انام في قلب الصمت ، في كهف بأعماق محيط .

ـ أرني يدك .

ـ ها هي .

ـ هذه التجاعيد مبكرة في ظهر اليد . مبكرة جدا لشاب في بداية الاربعين . قل لي يا ولدي . كيف جئت الى هنا ؟

ـ قادني صديق . ينتظرني الآن بالصالة .

ـ هذا أفضل . من الخطر ان تسير وحدك ، الآن .

ـ أعرف يا دكتور . ولكن ، الى متى ؟

ـ لا قدرة لي على التنبؤ .

ودق الطبيب جرسا ، رن صوته في الممشى رقيقا ، رفيعا ، خافتا ، ففتح باب الغرفة على الاثر . قال الطبيب للمرض ، بحسم مهموم

ـ اصرف المرضى . لن ارى احدا آخر اليوم .

ـ أمرك يا سيدي . لكن هناك مريض . ألح ، فادخلته الى العيادة .

ـ اصرفه ايضا .

ـ لكنه اراد ان يجلس على الكرسي ، فجلس على الارض .

نظر الطبيب منزعجا الى وديع . قال :

ـ ألم أقل لك ؟ لست وحدك الآن . وهذا هو عزاؤك .

ـ وبعد العزاء .

ـ لا احد يعلم الآن . قلبي معك . اذهب مع المريض الى صديقك. ونفذ ما قلته لك . وكن على صلة بي .

ونهض وديع . ومد الطبيب يده وصافحه بود . ومد يده الى المرض فصحبه الى الممشى ، وصالة الانتظار . ووقف صديقه ، واخذه بيده . وتوقف وديع ، راح يدير عينيه فيما حوله باحثا عن ذلك المريض . تعرف اليه بيسر من بينهم . رآه شيخا في الثلاثين ، يبدو ، مثله ، غارقا في الضباب ، ينتظر .

القاهرة — سليمان فياض

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .